

11:54 04/05/2015

صفاقس المدينة التي ادارت ظهرها للبحر



صفاقس من فوق

قد تنسى و انت تتجول في صفاقس انك قريب من البحر ، و ان هذه المدينة المزدحمة بالحجارة و الآخر و بالأسلاك الحديدية تواري زرقة جميلة و أفقا كاد يكون الأجمل لولا غبار رمادي يتدفق من مداخن شاهقة .
و قد تتناق في يوم ربيعي الى الاستماع لصوت النوارس و هي تستقبل قارب صياد ، أو تودع فرسن الشمس وهو يغوص في ماء "سيدي منصور" فلتتموج الألوان بين ارجواني بلوري و بنفسجي افحواني ، و فتها ستحاول يائسا ان تجد منفذها الى البحر ولكن دون جدو فكل الممرات موصدة وكل التغرات مغلقة . ماذا عساك ان تفعل وقد تبعدت المساكن الفخمة و تعالج المصانع و احدثت الموانئ الممنوعة على العامة . قد تفك في الابتعاد قليلا و الاتجاه نحو ساطى "تبرورة" لكن بلا فائدة فالحواجز الرملية التي اقامتها الجرافات تحول دون وصولك الى هذا الفضاء الرحب الذي طالما انتظرنا تهيئة ، و كبر حلمه فيينا و تلاشت أحلامنا فيه .

ذلك هي صفاقس اضحت كالمدينة الأرمدة، بعدما كانت عناء جميلة، عروسًا للمتوسط . لطالما تغنى بها الرحالة و الشعراء ، لطالما وصفها المترافق و المغربي، فهي التي قال عنها الاذرسي : "يصاد بها من السمك ما يعظم خطره ويكتن قدره... وحل غلاتها الزيتون والزيت وبها منه ما ليس يوجد بغيرها مثله وبها مرسي حسن ميت الماء وبالجملة إنها من عز البلاد " . وهي صفاقس نفسها التي زارها المبشر "ابفالد" في بداية القرن التاسع عشر فقال فيها : "قد لا توجد على كامل ضفاف البحر الأبيض المتوسط مدينة لها ما لصفاقس من موقع متميز و محيط جميل فنان .".

وقد يكون من العسير انتقاء بعض الأسطر من جملة كم هائل من النصوص والأشعار التي خصت هذه المدينة وشادت بما لها من الحسن والجمال، ولكن ما يدعو إلى الحسرة هو أن هذا الوجه الأصيل لصفاقس، قد تغير ملامحه وتسوه جماله، فحسبت البياتين وطمست المعالم، كيف لا وقد خربت حتى المقابر وأبعد البحر. نعم أبعد واطرد وسبح حتى خلأه فارقها و هجرها.

ولكن دعونا نسأل عن البحر ونستجلي أخباره : هل هو الإزرق الذي عهدهناه تتصب فيه "المصائد" وترسم في السفن " فإذا جزر الماء بقيت السفن في الحصاة وإذا مد رجحت السفن." أ هو الذي تقصده " التجار من الآفاق بالأموال الجزيلة لابتياع المتعان والزيت؟ هل هو ذاته البحر الذي يكتنز على " صدف يتسلل على لؤلؤ صغير الحب؟"

صرخنا في أعماقه فرجع الصدى، و كأنه منهك أو ميت لا يرد. حتى حركته باتت تقليلا بفعل تراكم الزيوت والسوائل على سطحه و كأن موجه أصابه الفتور، يرمي بتنقله على الجدران المخرمة فتتراكم على حاشيته علب البلاستيك و قوارير الخمور. تمزق التباك احتفاء و تقتلع نباته فلا يسلم منها صغير ولا كبير. وتجر اذياخ الخيبة سفنه فلا تجارة نافعة و لا صيد وفير. هكذا اضحي حاله كالقبيح الهرم، لا يعائق الأرض ولا الأرض تعاقمه، منبت، محاصر، كأن "تابلون" هجره.

على امتداد من هذه السواحل جاءت سفينة المغامر "جازون" أعمق البحار في بحثه عن الجزة الذهبية، لتخبرنا الاسطورة انه في "بحيرة تريتون" يوجد قصر "بورزیدون" الذهبي حيث تسكن هذه المياه آلهة عبدها الاغريق اسوة بأهل "ليبيا" كما أكد ذلك هيرودوت .

و ان كانت هذه التفاصيل لا تدعوا ان تكون مجرد عناصر اسطورية ذات ابعاد رمزية بالأساس فهي توضح مدى اهتمام المجتمعات القديمة بهذه البحار ووعي القدماء بتراثها البيولوجي . فكانت المنتجات الفنية في تلك العصور تعبر عن اندماج كلی مع حياة البحر . فغير فسيفساء سجلت طرقا خاصة بصيد السمك واحتفت بتتنوع اجناسها و ألوانها. كما كانت الأيقونات ذات البعد التوطمي تظهر آلهة البحار وهي تمتطي الدلافين و مخلوقات غريبة أخرى. فمن يزور المتحف البلدي بصفاقس يلاحظ من الوهلة الاولى ان ليس ثمة موضوع يستدعي التأمل اكثر من البحار من كائناتها و اساطيرها.

كما لا يفوّت الزائر او الباحث ان يلاحظ ان تاريخ هذه المنطقة كان مرتبطة بحياة الملاحة و التجارة البحرية، فعلى سواحلها ت成立了 أعرق المدن مثل "طانيا" و "اكولا" و "يونقة" و أقيمت المواني العظيمة . و لعل ما تبقى من آثار في منطقة "بطرية" يقيم الدليل على اهمية هذا الموقع، فيكفي ان نشاهد صورته الفضائية حتى تتضح لنا ملامح و اشكال مبنائه القديم، فلم يكن من العيب ان يختار الفينيقيون _ ذلك الشعب الذي خير البحر و عرف اسراره _ هذا الموقع لتشييد "اكولا" التي يضرب تاريخها في القدم . وقد حدتنا اكتر من مؤرخ عن عظمة صرحها و ارتفاع معالمها، ويكتفى على سبيل الذكر ان نستعرض ما قاله البكري عند حديثه عن محرسها : "فيها منار مفرط الارتفاع يرقى إليه في مائة و سبعة و ستين درجة".

و من يستحضر ساحل صفاقس و خليج قابس لا يمكنه ان ينسى ارخبيل قرقنة تلك الجزر التي حدتنا عنها هيرودوت حين اخبرنا بأن بها بحيرة يوجد فيها تبر الذهب . و هي نفس الجزيرة التي ركب اليها حنبعل ليهاجر منها الى الشرق، فعرفنا من خلال الروايات الرومانية انها كانت موقعاً ذاتا شائعاً لتشييد فيه معابد الآلهة، و ترسو في موانئه السفن الحربية والتجارية على حد



و ارخيبل فرقنة ليس بالازخيبل الوحيد الذي يجاور سواحل صفاقس . فقبلة منطقة الحتشيشة و على مقربة من قرية الخواة تترى جزر الكناس في عرض البحر كما هو المؤول في صدف محار. و يكفينا فخرا ان هذا الأرخيبل يعد من أهم المحميات الطبيعية في تونس. فعلى بعد أميال فقط من برج "لونقة" سيدت كنيسة على ارض جزيرة صغيرة تتنمي لهذا الأرخيبل.

مدغشقر: الجزيرة المفقودة في كوم التراب. قالوا ان الأرض لا تكفي فعائقوك. سموك "مادام كيكار" وما علمنا الله من الأسماء الا القليل. كانت القوارب على ساحلها الصغير ترسو فطمسوا ضفافك و أحقواها بالابسة. غيروا حتى الجغرافيا. فلا اصداف بعد اليوم توشكك و لا موج يؤنس وحدتك.

طينة ايتها الجارة القديمة ، القرية البعيدة هلا رفعت اللثام عن وجهك الصليوح ، هلا همست لنا بسر الصمود. هلا حذتنا و لو قليلا عن قرطاج الحبيبة. طينة ايتها الملكة الساهرة على أحواض الملح، ايتها الاخت التوأم ، ايتها الأم، هلا فتحت لنا ابواب سورك القديم فندحلك احبة سالمين مساملين. هلا رویت لنا قصص الأولين ، هلا قدمت لنا النصيحة و افصحت عن الحكمة. فلا البحر خانك و لا انت خنته . و لا الملح ذاب و لا انت انبته. على جدرانك لا تزال حبات الفسيفساء تصرخ ألوانها تشهد على ماض مجيد، و على مقربة من عتباتك كانت السفن ترسو تم تند الرحال الى افق نتنعيه.

على هذه الارض ما يستحق الحياة" طعم سمك "الخصير" في الربيع، صباح الأرجوان القديم، نور يتتفق من الزيت و بحر ازرق يناديك".

صفاقس يا بلدي الساكن في دمي .. انتقضى من تحت الركام. انتقضى

هزى ذراعك الى الاعلى وانتصرى.. استنتقى الهواء من جديد.. تحركي ..

بالي رجلك في الموج .. تطهري.. متنطى شعرك الذهبي ..

عانقى البحر فهو حبيبك العائد بعد رحيل... فائت العروض نزفها.